الأعناق الملوية

قصة بقلم نعمة لباد

انتفخ الراعي حنقا . اهتزت عضلات وجهه وتوترت . امسك عصاه وهزها في قوة . زمجر في غضب :

ـ هذه الاكباش اللعينة لا تكف عن التناطح. ينبغي ان اضع لهاحدا.

أراد آن يهجم على الاكباش ويضربها ضربا مبرحا ، ولكنه تريث. أمعن مفكرا في ما ينبغي ان يفعل ، ثم قال في نفسه :

ـ يجب أن أستدعي كبير العنز وأستشيره في الامر .

لم يكن كبير العنز بعيدا عن الراعي . فقد كان يقضم العشب الاخضر في مرج مجاور ، ويلقي ببصره فيه بين الفينة والاخرى .هرع اليه جدي فتي وابلغه ان عليه ان يخف الى الراعي في الحال .

مثل كبير العنز امام الراعي بعد لحظات . تراقص عثنونه في خبث ، وتمايل ذيله القصير في زهو فوق عورته المكشوفة .

قال الراعي مغيظا :

ـ ان الاكباش لا تكف عن التناطح . واني لأخشى ـ ان هي استمرت في ذلك ـ أن تزداد شراسة وتقتل بعضها بعضا . فماذا ينبغي أن نفعل حتى نجعلها تكف عن التناطح ؟

أطرق كبير العنز واغرق فيالتفكير . ظل صامتا حينا منالزمن. فانتهره الراعي قائلا :

ـ مالي أراك قد لذت بالصمت ؟ ألا تعرف ما ينبغي ان نفعل؟

رفع كبير العنز رأسه في بطء . تنحنح عدة مرات ثم قال في جد ووقار مصطنعين :

ـ ان الامر لخطير يا سيدي ! فاذا ما ظلت الاكباش تتناطح فانها قد لا تقتل بعضها بعضا وحسب ، وانما قد تقتلك انت !

أجفل الراعي واعتراه فزع مفاجيء . كست سحنته تقطيبة داكنة . ارتعشت يداه وكاد بصره أن يزيغ . قال محتدا :

ـ كيف يمكن للاكباش ان تقتلني ؟

ـ ان التناطح يزيدها شراسة وعدوانية . وقد تغافلك ذاتيوم ـ وأنت تقودها الى المرعى ـ فتهاجمك وتقضي عليك !

امتلأ الراعي هلعا . شد قبضته على عصاه وصاح متوعدا .

ـ ليس هذا مستبعدا ، ولكني لن ادعها تنال بغيتها . اني استطيع أن أؤدبها في اية لحظة .

صمت كبير العنز ، وتظاهر بانه يفكر في الامر ويفتش عن حل.

قال الراعي وقد نفد صبره :

ـ لقد أتيت بك ، ياكبير العنز ، الى هناكي استشيرك في الامر . فلماذا تلوذ بالصمت ؟

ـ قلت لك ان الامر خطير يا سيدي !

ـ هذا صحيح . ولكن ، أليس في وسعنا ان نفعل شيئا ونجعل الاكباش تكف عن التناطح ؟

ـ هناك اشياء كثيرة نستطيع ان نفعلها يا سيدي الراعي .

ـ أوضح لي هذه الاشياء ، أوضحها لي .

ـ أود أولا أن اعرف ما يدور في خلدك انت . فما هيخطتك ؟

فكر الراعي برهة ثم أضاف :

ـ أعتقد ان افضل ما يمكن ان افعله هو أن أحبس أكباش القطيع عن الرعي حتى تجوع وتهزل .

ـ وماذا تنوي أن تفعل بعد ذلك ؟

ـ أسوق القطيع على عجل الى المرعى ، وأتركه فيه فترةقصيرة من الزمن ، ثم اعود به الى الحظيرة .

وحينذاك فسوف ينشغل القطيع عن التناطح ، ويجري باحثا عن لقمة القوت .

ـ ولكن الجوع ، ياسيدي الراعي ، قد يؤجج شراسة القطيع ويفجر عدوانيته .

ـ اذا . ماذا يترتب عليّ ان افعل ؟

ـ ليس أمامك الا أن تكسر قرون القطيع .

ـ ولكن ، الا تنبت قرونه مرة ثانية ؟

ـ عليك أن تكسرها كلما نبتت !

* * *

تجهم الراعي واختفت الطمأنينة من عينيه . وبدا سد من الحذر والتوجس يرتفع شيئا فشيئا بينه وبين القطيع .

لاحظت الاكباش ان الراعي قد اخذ يبدي فتورا تجاهها ، ولكنها لم تدر سبب ذلك الفتور . ظنت في البدء ان مرضا مفاجئا قد يكون ألم بالراعي وجعله يتقاعس عن التنقل بها من مرج الى مرج .ولكن ، في اصيل احد الايام ، تناطح كبشان متعافيان في قسوة وشراسة ، فقفز الراعي اليهما وأوسعهما ضربا مؤلما بعصاه الغليظة .

احتج الكبشان احتجاجا شديد اللهجة ، وقال القطيع كله مستنكرا :

ـ ان من حق الراعي ان يحكم بين الاكباش التي تتناطح ، ولكن ليس من حقه ان يضربها ضربا مميتا .

ارغى الراعي وازبد . طوح بعصاه انغليظة في الهواء ، وصرخ قائلا :

ـ أيتها الاكباش الشرسة ! أيها القطيع المتمرد ! لن يرتفع رأس فوق رأسي ، ولن تمتنع قرون على عصاي ! اني أنذر ولن أعذر .واني احظر التناطح حظرا تاما من هذه اللحظة فصاعدا . والاكباش التي تخرق هذا الحظر لن يكون مصيرها غير الموت والهلاك !

تحرك كبش تلوح عليه أمارات العافية والثقة بالنفس ، فتقدم من الراعي وسأله في استغراب :

ـ هل يتكرم الراعي ويطلعنا على الاسباب التي حدت به الى أن يحظر علينا أن نتناطح ؟

ـ أخشى أن تتآصل الشراسة في نفوسكم وتقتلوا بعضكم بعضا. كما أني لم أعد أتمنكم على نفسي . فقد تبلغ الشراسة في كبش منكم حدا يجعله يهجم عليّ ويقتلني !

سرت في القطيع همهمات غامضة ، وارتسمت على وجوهالاكباش علامات حيرة واندهاش . وظنت أكباش ان الراعي قد اصيب بمس، فضحكت في غير وقار . واحتقن الراعي غيظا .

رفع كبش رأسه في اعتزاز وقال مؤكدا :

ـ من طبعنا . أيها الراعي الكريم ، أن نتناطح . ونحن ،حين نمرن قروننا على التناطح ، لا نبيت لك شرا أو نضمر في قلوبنا كراهية ، ولكننا نهيىء انفسنا للدفاع عن ارواحنا . فقد يهجم علينا ذئب او ثور أو حصان !

ـ ان حمايتكم ملقاة على عاتقي ، فلا تقلقوا .

عقب كبش في غير اقتناع :

ـ ولكن ، ماذا تنفعنا حمايتك بعد ان نكون قد متنا بانياب الذئب أو قرون الثور او حوافر الحصان ؟

وعلق كبش آخر في سخرية واستهجان :

ـ ان شاة عرجاء لافضل الف مرة من كبش لا يجيد استعمال قرنيه !

هاج القطيع وثغا مؤيدا أكباشه الجريئة . ولكن كبير العنز ، الذي كان يقف خلف الراعي ، تنحنح ثلاث مرات كأنه يقول للراعي : ألم اوضح لك ما ينبغي أن تفعل ؟

رفع الراعي عصاه الغليظة ، وانهال بالضرب على الاكباش المتمردة اولا ، ثم هوى بها على القطيع كله دون أن يميز بين كبش ذي قرون وشاة لا قرون لها .

ترجرج القطيع واضطرب . وظلت العصا ترتفع وتهوي في قسوة . احتمل القطيع الضرب حينا ، ثم اخذ يتفرق تحت وطأته في كل الاتجاهات . وما لبثت الاكباش الجريئة ذاتها أن اخذت تلوذ بالمساتر والصخور والمخابىء .

استبدل الراعي عصاه الغليظة بعصا أخرى أشد قسوة وايلاما .. عصا ذات عقد كثيرة ورأس منتفخ غرزت فيه المسامير وقطع الحديد .

وانتعل كبير العنز حذاء ثقيلا ، وحمل هو الاخر عصا غليظة .

لم يهن على بعض من حراس الراعي أن يروا الخسف ينزل بالقطيع والاكباش . وغاظهم أن يصبح كبير العنز ذا صولة مرهوبة الجانب ، فجاؤوا سرا الى الراعي وصارحوه في الامر وحذروه من المغبة . ولكن كبير العنز استطاع ان يترصدهم ويفتك بهم واحدا بعد الآخر .

لم يعد كبير العنز يسرح ويرعى مع القطيع . فقد صار همه الوحيد أن يتنقل خلسة خلف الاكباش ، يراقبها مراقبة دقيقة ويحصي عليها حركاتها ، ثم ينقل ما يراه منها او يسمعه عنها ـ بعد تضخيمه مرات ومرات ـ الى الراعي ويوغر صدره على الاكباش والشياه جميعا. وبدأ الراعي ، هو أيضا ، يسير خلف القطيع بعد أن كان يمشي أمامه.

كاد القطيع من الخسف الذي نزل به وقاسى . فامتعض . ولكن لم ينفعه الامتعاض . وأدرك أن كبير العنز قد أفسد العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بينه وبين الراعي .

حارت الاكباش في ما ينبغي ان تفعل ، ولم تستطع ان تهتدي الى خطة عمل موحدة . فاكباش كانت تنقصها الجرأة والثقة بالنفس وبالقطيع رأت ان تكف عن التناطح حتى يهرم كبير العنز ويشيخ ولكن اكباشا اخرى اعلنت ان حماية القطيع تقع على عاتقها ، ورفضت ان تحول عصا الراعي القطيع الى مجموعات متناثرة من الجرذان والفئران الكبيرة ، وجاهرت بأنها سوف تتحدى الحظر الذي فرض على التناطح...

اشترى كبير العنز منظارا مكبرا ، وأخذ يترصد الاكباش التي اهابت بالقطيع ألا يكف عن التناطح . وفي صبيحة أحد الايام الربيعية، هرع كبير العنز الى الراعي وابلغه ان ثلاثة اكباش ضبطت في منخفض من الارض وهي تتناطح .

أسرج الراعي حصانا من غضب . ثم امتطاه وطار فوقه الى الاكباش الثلاثة فانقض عليها كالشهاب وهشم قرونها وفج رؤوسها في أقل من لمح البصر .

ثغا القطيع وتألم ، ولكنه لم يجرؤ على أن يحتج أو يرفع رأسه .

وأكثر من ذي قبل ، ارتفع سد الحذر والنوجس بين الراعي والقطيع . ثم تحول ، بعد حين ، الى سد عال من الكراهية والحقد .

* * *

ازداد كبير العنز غطرسة وزهوا . تلطخت يداه بالدماء فتباهى، وداست أقدامه على الرؤوس فتفاخر . وجعل يضرب الارض بحذائه ضربا قويا ، ويختال فيها طولا وعرضا ، حتى خيل اليه انه صار ربا من الارباب . وما لبث الراعي أن وقع في أسره وصار يهابه كثيرا ويحسب له الف حساب .

واستبد الخوف بالقطيع فشله وأعجزه عن أن يرفع رأسه عن الارض . تآكلت قرون الاكباش وعشش فيها السوس . ومضى كل كبش الى شأنه ، يمشي وحده ويرعى وحده ، لا يقترب من كبش آخر ولا يحدث حتى أخاه خشية أن يظن به السوء ويحوم حوله الشبهات .

غير أن كبشا واحدا لم تمت فيه غريزة التناطح . فقرر أن يبصر القطيع بالعاقبة الوخيمة التي ستنجم عن الصاق الاعناق بالارض . وشرع يتنقل تحت جنح الظلام بين افراد القطيع ويدعو الى ضرورة الاستمرار في التناطح مهما كانت التضحيات .

وذات مساء خيل لذلك الكبش أن عين كبير العنز غافلة عنه فأخذ يمارس حقه في التناطح مع خياله في مخبأ صغير خلف صخرة من الصخور . ولكن منظار كبير العنز اخترق الصخور ووقع عليه.

وخلال دقائق معدودات هوت عصا الراعي على رأسه ومزقت جسمه اربا اربا .. وانهت بلحمه الى الكلاب والقطط والجرذان .

والتصقت أعناق القطيع بالارض التصاقا اناما .

* * *

وجاء يوم أسود مشؤوم .

فقد غطت وجه السماء غيوم حالكة كأجنحة الغربان . وغلف الاودية والسهول ضباب كثيف .. كثيف .

كان القطيع يبحث عن انفوت في مرج يكثر فيه الشوك والعوسج. ونعب غراب في الجو فتوجس القطيع وأجفل .

وعلى حين غرة ثغا كبش في مقدمة القطيع ثغاء مذعورا ،ثم صمت صمتا مطبقا . وما لبث كبش اخر أن ثغا صارخا ، ولكن ثغاءه اختنق في لحظات .

هب الراعي منتصبا في رعب حقيقي ، وهرع الى الامام .ولكن الضباب الكثيف حجب عنه افق السماء ولم يتح له ان يتبين حقيقة الامر الذي دهى .

ومضت لحظة أو لحظتان .. ثم ثقبت أذني الراعي موجة عالية من عواء ذئب جائع غادر .

جن جنون الراعي ، فانطلق يصرخ بأعلى صوته :

ـ أيتها الاكباش الحبيبة ! الذئب الغادر يهاجمك ، فارفعي رؤوسك ! أيها القطيع الغالي !

الذئب الجائع يبغي افتراسك ، فاشحذ قرونك وابقر بطنه !

دب الهلع في أفئدة القطيع . اختلجت أكباد الاكباش وضجت في اعماقها غريزة التناطح ، فسعت لان ترفع رؤوسها وتستعمل قرونها . ولكنها فوجئت بما هو أدهى من الموت . فقد كانت اعناقها ملوية الى الارض ، ولا تقوى أن ترتفع الى فوق !

شرب الذئب الجائع من دماء القطيع حتى ارتوى ، ونهش من لحمه حتى شبع ...

ولم يصب كبير العنز بأي أذى . فهو ماكاد يسمع صراخ الراعي وثغاء القطيع حتى قفز كالعصفور الى شجرة عالية واختبأ فيها !

وبعد حين جمع الراعي الحزين بقايا قطيعه الذي شتته الذئب الجائع ، وقال في خيبة ومرارة :

ـ لقد خدعني كبير العنز واستحق لعنتي الابدية !

وقالت الاكباش الجريحة التي ظلت على قيد الحياة :

ـ لقد أذلنا الراعي وأوقعنا كارثة رهيبة !

وقالت شاة كان الذئب قد نهش أليتها :

ـ لقد فتك الذئب بنا لاننا رضينا بأن تظل أعناقنا ملوية الى الارض !

دير الزور (سوريا)

نعمة ابباد